جوانب من حياة المغول المعيشية

د . سعد بن محمد حذيفه الغامدى

أستاذ مشارك

قسم التاريخ ــ جامعة الملك سعود

الرياض

حرر فى : ١ شعبان ١٤٠٨ هـ

٩ مارس ١٩٨٨ م

١ ــ غذاء الانسان فى المجتمع المغولى

مقدمـــة :

حينما برز جنكيز خان على مسرح أحداث التاريخ ، فى الجهة الشرقية من قارة آسيا ووسطها ، ثم فى غربيها فيما بعد ، كان الانسان المغولى يعتبر فى قائمة الانسان البدائى ، فى جميع مناحى شؤون حياته ، وخاصة ما يتعلق بأكله وشربه . ويعتبر ذلك جزءً من التقليد والعادة التى درج عليهما ، فقد ظل على هذا المنحى حتى بعد أن إحتك بعالم زمانه المتحضر ، وذلك فى أواخر القرن السادس للهجرة/الثانى عشر للميلاد . فعلى الرغم من اتساع رقعة دولتهم ، والتى شملت كافة أقاليم وشعوب الأمم الأسيوية تقريباً ، ومدت نفوذها إلى أقطار أوربا الشرقية والوسطى ، إلا أن مسألة التحضر والتطور فى نوعية ، وطريقة أكله وشربه ، لم يطرأ عليها تغيير كبير ، فى مجتمع المغول ، فى موطنهم الأصلى ، وحتى العصر الحديث . فما كان ينطبق عليهم ، فى أيام جنكيز خان ، نجده يتمثل فى كثير من مجتمعاتهم فى هذا القرن ، وخاصة بين أوساط مجتمعاتهم البدوية ، فيما بين القبائل التى تسكن المناطق شبه الصحراوية ، أو فى مناطق الغابات ، والأدغال . لذلك فالقارىء لأى تقرير عنهم فى العصر الحديث يجد أن الحياة الاجتماعية والناس لا يكادون يختلفون عما يقرأه عنهم فى كتابات المؤرخين ، والرحالة ، فى زمن جنكيز خان وأبنائه وأحفاده من بعده ، قبل سبعة قرون مضت . فهو مجتمع بدوى ، إلى البدائى أقرب منه إلى الانسان الأكثر تمدنا . إذ أنه يعتمد كلية على حيوانه ، الذى يقوم على تربيته ، ويحلبه ويضربه ، أو الذى يصيده للحمه وجلده وفروته ، للأكل وللباس[1] .

---

(١) صنف فى أواخر الثلاثينات من القرن العشرين الربع عشر الماضى عن المغول فى الوقت الحاضر ، وهو يصف المغول ، وحياتهم ، فلا تكاد تجد فرقا بين ماضيهم وحاضرهم . والكتاب هو

"Mongolia in Search of Marco Polo and other adventures" for Micheli Silvio in Italian Language translated into English by : B. Penman, London, 1967

لذلك فإننا سنتطرق في الصفحات القليلة التالية من هذه الدراسة إلى جزء من حياة المجتمع المغولي ، وهذا الجزء هو أهم مقومات الانسان ، ألا وهو « طعام المجتمع المغولي وشرابه » . يقول المؤرخ المسلم ، الذي عاصر المغول ، وزحفهم ضد العالم الاسلامي ، عز الدين بن الأثير ، في معرض كلامه عنهم بأنهم : « ... ، ولا يحرمون شيئاً ، فانهم يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب ، والخنازير وغيرها ... »[1] .

لقد أصاب مؤرخنا ، فيما رواه عن المغول ، بل أنه لم يذكر شيئا يأكله المغول ، سواء من لحم الكلاب ، والخنازير ، حيث ربما أنه لم يكن يتصور بأنهم يأكلون لحوم البشر ، بل وحتى مشيمة الحيوان بعد الولادة ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، كما سيرد معنا بعد قليل ، وهذا ما يحدثنا به رجل عرفهم من على قرب ، وتعامل معهم ، وعاش بين ظهرانيهم ، وهو « John De Plano De Carpini » . حيث يقول بأن طعامهم يتكون من كل شيء يستطيعون أكله ، فهم يأكلون الكلاب ، والذئاب ، والثعالب ، والخيول ، وعندما تجبرهم ظروف الجوع والضرورة ، فانهم يقتاتون على لحوم البشر . ثم يردف « جون الكربيني » روايته تلك من أنهم ، أثناء الفترة التي كانوا يحاصرون « الخطا »[2] ، نفدت عليهم المؤن الغذائية ، واستمر حالهم على ذلك لمدة طويلة . وعندما لم يجدوا شيئاً يأكلونه ، شرعوا يأخذون من بينهم رجلاً من كل عشرة رجال . ثم يذهب هذا السفير البابوي إلى رواية أبعد من هذه بكثير ، فيقول بأنهم يأكلون ما يخرج من أنثى الخيل (الفرس) من أوساخ عندما تلد مهرها ، يعني المشيمة وغيرها . بل ليس هذا فقط ، فقد شاهدهم يأكلون القمل ، ويذكر بأنه عندما يسأل بعضهم عن ذلك كانت اجابته :

(١) عز الدين بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار صادر ، جـ ٩/ ٣٦٠ .

(٢) يقصد بذلك أثناء حصار المغول عاصمة امبراطورية « جين » خان الصين ، وهم الذين عرفت أراضيهم لدى الأوربيين في ذلك الوقت بـ « الكاثاي Cathay » . وقد غزاهم جنكيز خان ، واقتحم عاصمتهم « بكين » في صفر عام ٦١٢ هـ حزيران ، يونيه سنة ١٢١٥ م . راجع ذلك في كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ، ص . ٧٨ وبعدها ، وما ورد في تلك الصفحات من الحواشي

« لماذا لا أكل القسل ، فى حين أن يتغذون على لحم ابنى ويمصون من دمه » . ويذكر بأنه شاهدهم يأكلون الفئران[1] .

أما رواية « ويليم الربركى القس Friar William of Rubruck »[2] فانها تعتبر أكثر تفصيلاً ، فى هذا الموضوع ، من غيره ممن عرف المغول . وقبل أن أتعرض لما ذكره هذا السفير الملكى فى هذا الشأن ، يروق لى أن أشرح للقارىء والباحث الكريمين شيئاً عن هذا الرجل ، وأسباب رحلته إلى منغوليا ، وبعضاً مما قيل عنها .

قام الملك لويس التاسع ، ملك فرنسا فانتدب هذا القس إلى بلاط خانات المغول ، فاستغرقت رحلته حوالى سنتين (٦٥١ — ٦٥٣ هـ/١٢٥٥ م) . فهو ممن عاصر المغول ، وسكن معهم فى عاصمتهم « قرا — قروم » وغيرها لفترة كافية ، عرّفته عليهم عن كثب ، وأصبح ما كتبه عنهم ، فى رحلته إليهم ، من أهم مصادر معلوماتنا التاريخية ، والعلمية بشكل عام . لقد حاول « J. De Rachewiltz » فى مصنف له أن ينفى دور الملك لويس التاسع فى مسألة ارسال ذلك القس ، إلى مهمة سياسية ، كان الغرض منها توحيد الجهد مع المغول ضد المسلمين وأخذ بيت المقدس منهم : والمصنف بذلك أراد نفى الرأى الشائع بين المؤرخين فى هذا الخصوص . ومع ذلك ، فان الحقيقة تبدو جلية فى ناحيتين :

١ — أن هذا القس كان مصاحباً للملك الفرنسى فى حملته الصليبية الفاشلة ، والتى بدأت بمصر ، فكان نصيبه الأسر ، بعد هزيمة جيشه على أيدى المماليك . ورغم كرم المسلمين باطلاق سراحه ، فقد كان حقده دفيناً على المسلمين ، ولو جاءه شيطان لتحالف معه ضدهم . لذلك فقد أرسل « لويسُ » « القس ويليمُ » لأنه يحمل نفس الروح العدائية

---

(١) Carpini, "History of the Mongol", Ed., Dawson, PP. 16.

(٢) فيما يتعلق بمصنف هذا السفير ، أنظر كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص . ص : ٣٩ — ٤٠ .

للمسلمين ، ليكون رسوله إلى خانات المغول ، لعله يجد عندهم ما كان يبتغيه ، وذلك لايجاد حلف شرقي وغربي ضد المسلمين[1] .

٢ ــ أن هذا المصنف قد ناقض نفسه في ناحيتين :

ا ــ اثبات صحة صحبة القس لذلك الملك القس هو الآخر ، وهذه حقيقة لا يمكنه انكارها ، أن هو حاول ، ثم بقاؤه مع الملك في فلسطين حتى سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٣ م ، أي أن ذلك يعني أنه ظل مع الملك قرابة أربع سنوات (٦٤٦ ــ ٦٥٠ هـ/١٢٤٨ ــ ١٢٥٣ م) ، فلا يمكن أن يذهب ذلك القس إلى منغوليا ليجد أو يبحث عن فلان أو غلان من رجال الدين المسيحيين ، ممن كان قد ذهب إلى منغوليا ، ولم يعد ، في محاولات لتنصير المغول ، وعقد أحلاف معهم . وقد عرف ما آلت إليه رحلات السابقين من الفشل الذريع ، وهذا ما ذكره هذا المصنف أثناء كلامه عن رحلة « الكريني » في نفس الصفحة .

ب ــ لقد ذكر المصنف أن الملك قد وصلته أنباء تفيد أن أميراً مغولياً قد اعتنق المسيحية ، وأن هذه المعلومات قد جاءت إلى الملك من جهات مختلفة . على حد تعبير هذا المصنف[2] . لقد كان ذلك الأمير المغولي الذي اعتنق المسيحية ، هو « سرتق بن باتوبن جوجي بن جنكيز خان » . ومن المعلوم جيداً أن مسألة اعتناق هذا الأمير المغولي للمسيحية تعني وقوف القوم إلى جانب الملك الفرنسي ضد المسلمين . وفي الحقيقة فان في سفارة ذلك الراهب تكمن مهمة فتح باب

---

(١) يستطيع القارىء والباحث الكريمان أن يرجعا إلى ما كتبه « وليم » في رحلته تلك عن المسلمين في آسيا الصغرى ، ليطلعا على حقد سيده ، الذي انعكس ذلك فيما كتبه هو في ص : ٢١٧ . راجع كذلك ما قلناه في هذا الخصوص في كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ، ص . ص : ٣٦٣ ــ ٣٦٤ .

(٢) Friar William of Rubruck, "The Journey of William of Rubruck to the Eastern Part of the World, 1253 - 55", with two accounts of the earlier journey of John of Plano De Carpini, Ed., by : Dawson, P . 217.

(٣) I. De Rachewiltz, "Papal|Envoys to the Great Khans", London, 1971, P . 125

المفاوضات معهم لايجاد حلف مع المغول ضد المسلمين . كيف لا ، ونحن نعرف مدى تشبث الأوربيين بأى حليف ضد المسلمين ، فقد انتشرت بينهم أساطير كثيرة ، وما أسطورة ذلك الملك المسيحى المشرق ، الذى سيقدم من الشرق ، ويهزم المسلمين ، ويأخذ منهم فلسطين وبيت المقدس ، ذلك الملك الأسطورى هو ما عرف فى مصنفات المؤرخين الأوربيين بـ « بريسترجون Prester John » . وقد طرقنا هذا الموضوع بنوع من التفصيل فى بحث لنا سابق ، كما طرقه مؤرخون أوربيون ، فلا بد أن يكون فى مخيلة « لويس التاسع » صورة ما تزال حية لذلك الملك المسيحى الأسطورى ، الذى سيقدم إليه من الشرق ، ويحالفه ، ويهزم المسلمين[1] .

ب ــ طعام المجتمع المغولى :

نرجع الآن إلى موضوعنا « طعام المجتمع المغول » ، وإلى ما أورده لنا « القس الراهب وليم الربركى » فى هذا الشأن ، حيث يذكر بأن طعام ومؤن المغول تتمثل حتى فى الحيوانات الميتة ، وبدون استثناء ، وأن الحيوانات والمواشى ، التى تتوفر بأعداد هائلة هناك بشكل خاص ، كانت تموت وبأعداد كبيرة ، فلا يترددون على الاطلاق فى أكلها . إلا أنهم ، مع ذلك ، لا يهتمون فى فصل الصيف ، بأى نوع من أنواع الأكل أو اللحوم ، أو الحرص فى الحصول عليه ، لأن « الكوزموس Kuzmos »[2] يوجد بكثرة هائلة . لذلك فانهم فى القليل النادر يأكلون لحماً ، بل أن ذلك يترك للظروف ، وحسبما

---

(١) فيما يتعلق بذلك الملك المسيحى الأسطورى « بريسترجون Prester John » ، أنظر : "Travel and Travellers of the Middle Ages". Ed., by : A. Newton. London, 1930, Chapter IX.
كذلك كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ، ص : ٣١٨ وبعدها : كذلك مقالتنا التى بعنوان : « معركة قطوان ، أسبابها ونتائجها » مجلة العصور ، ص ، ص : ٧٥ ــ ٩٤ فى المجلد الثانى ، الجزء الأول ، عام

(٢) هو حليب الفرس . لمعلومات عن هذا النوع من الشراب المفضل لدى مجتمع المغول ، أنظر : Rubruck, "The Journey.". Ed., Dawson, P. 98.

يتفق ، أي عندما يقدمه إليهم أحد ، أو ما قد يقع تحت أيديهم من الصيد ، أكان ذلك حيواناً ، أم طيراً ، قد يحصل لهم عن طريق الصدفة . أما إذا صادف ومات ثور ، أو حصان ، فانهم يُشرحون لحمه إلى شرائح طويلة ودقيقة ، ثم يعلقونها للتعرض لضوء وحرارة الشمس ، ولهبوب الهواء ، حتى تُجفف بهذه الطريقة ، دون أن يصبح لها رائحة كريهة ، وحتى بدون أن يضيفوا عليها أملاحاً ، إذ أنها لا تتعدم ولا يعتريها تلف . أما الأمعاء ، فانهم يضعون بداخلها مادة مأكولة ، فيصبح لديهم محشي ، ويتعمدون أكلها طازجة . أما بقية اللحم ، فانهم يحتفظون به إلى فصل الشتاء ، حيث يصنعون من جلود الثيران جراراً عظيمة الحجم ، وذلك بتجفيفها بالدخان ، وبطريقة فنية . كما يقوم المغول بطبخ طعامهم على النار ، حيث يجلسون حولها ، الرجال على طبقاتهم ، من الرئيس ، أولاً ، أو الامبراطور ، إلى الفقير . ويتكون وقود نارهم ، بصفة أساسية ، من روث الأبقار ، والخيول ، وغيرها ، بعد أن يكون جافاً[1] .

يذكر « ويليم » أن الرجل المغولي يمكنه أن يطعم خمسين شخصاً ، وأحياناً مائة ، من لحم شاة واحدة فقط ، حيث يقوم بتقطيعها ، بعد أن يقدها نصفين من الصدر ثم يذبحها من حلقها ، حيث يضع اللحم بعد طبخه في اناء صغير ، ثم يقطعها برأس سكينته ، أو شوكة مخصصة لهذا الغرض[2] . بعد الانتهاء من ذلك يناول الرجل ، القيم على ذلك العمل ، كل شخص عنده لقمة أو لقمتين ، حسب العدد ، وكمية اللحم المتوفر . إلا أنه لا يشرع في تقسيم اللحم إلا بعد أن يبدأ برئيس القوم أولاً ، حيث يأخذ الكمية التي يرتضيها ، ثم يوزع الباقي على الحاضرين . أما إذا ما أعطى ذلك الرئيس أحداً قطعة أو شيئاً من ذلك اللحم ، فله أن يأكله ، وله أن يعطي شيئاً منه إلى من يشاء . وإن أراد أن يأخذه معه إلى منزله فله ذلك ، حيث يضعه في جراب يحمله معه لوضع أشيائه من هذا النوع بداخله . ثم يردف هذا الرحالة والسفير قوله ، أما العظام ، فإن كان لديهم وقت كاف في مجلسهم ذاك ، فانهم يقرضونه

(١) أنظر المصدر السابق ، ص . ص : ٩٧ — ٩٨

(٢) لمعلومات عن طريقة ذبح المغول لحيواناتهم ، أنظر الجويني ، « جهانكشاى » ، حـ ١ ، ٣٠٦

بأسنانهم ، ويستخرجون منه المخ ، وإذا لم يكن لديهم ، فى مجلسهم ذلك ، متسع من الوقت فانه يوزع على بعض الحضور ، لأخذه معهم ، وبعضهم يعطيه إلى خادمه ، ان كان موجوداً معه ليحتفظ به له ليقرضه فيما بعد ، ثم يستخرج ما بداخله من المخ قبل اعطاء باقى العظام إلى الكلاب ، وعلى هذا الأساس فان طعامهم لا يتلف منه حتى القليل ، الذى يعتبره الغير من غيرهم من الأمم شيئاً يتلف[1] .

أما « جون الكربينى » فيردف القول ، فى هذا الشأن أن المغول لا يملكون خبزاً ، ولا يأكلون أعشاباً ، ولا فاكهة . فلا أكل لديهم إلا اللحم ، ومع ذلك فلا يأكلون منه إلا بكميات قليلة .

لهذا فلا تستطيع أمة من الأمم ، غيرهم ، أن تعيش على ما يعيش عليه المغول لقلته وزهادته . يتناول المغول أكلهم بأيديهم ، التى تتسخ بالدهنيات أثناء عملية الأكل . وبعد الانتهاء فانهم لا يغسلونها ، بل يمسحونها فى ملابسهم التى يرتدونها ، وخاصة فى ذلك الغطاء أو اللباس المصنوع من الجلد الذى يغطى سيقانهم ، أو فى العشب ، أو ما شابه ذلك . أما القليل منهم ، وخاصة من الناس ذوى المكانة الكبيرة ، فربما يؤتى لهم بقطعة قماش ، فيمسحون بها أيديهم من الدهنيات بعد الانتهاء من أكل اللحم[2] .

وعندما يأكلون بشكل جماعى ، فان الرجل قد يقطع اللحم إلى قطع صغيرة ، فيقدم إلى كل واحد قطعة برأس سكينته ، فيعطى البعض منهم كثيراً أو قليلاً ، تختلف باختلاف مكانة الرجل المُطْعَم[3] .

أما ما يتعلق بغسل الأوانى ، التى يستخدمونها لطهى طعامهم ، فان المغول يضعون اللحم مع المرق ، وبعد ذلك لا يغسلونها . وإن أرادوا تنظيفها فانهم

---

(١) Rubruck, "The Journey...", P : 98.

(٢) Carpini, "History of the Mongol" Ed., Dawson, P . 16.

(٣) Rubruck, "The Journey...", P : 98.

يشطفونها بالمرق الذى طبخ فيه اللحم ، فيعيدون ذلك المرق إلى الاناء الذى نقل فيه اللحم والمرق بعد الانتهاء من طبخه ، كما أن الملاعق والشوك تنظف بنفس الطريقة .

يعتبرُ الانسانُ المغولى من الذنب ، أن يتلف أى طعام أو شراب ، بأية طريقة كانت ، فالعظام لا تعطى إلى الكلاب إلا بعد قرض ما يستطاع قرضه أولاً ، ثم أخذ ما تحويه من المخ ، ثم بعد ذلك تعطى الكلاب فضلات العظام(١) .

ومع أن المغول تحضروا ، بحكم تقليدهم للشعوب التى كانت أكثر تحضرا منهم ، واعتناقهم لأديان مختلفة باختلاف الشعب أو الشعوب التى خضعت لنفوذهم ، إلا أن نوعية اللحوم ، المكونة بصفة رئيسية من لحوم الخيل ، والطريقة العامة فى الطبخ ، وكيفية تقطيع اللحم ثم طريقة تقسيمه ، مازالت هى طريقة الآباء والأجداد ، التى كانت متبعة فى الموطن الأصلى فى منغوليا .

وحول هذا الموضوع ، يحدثنا ابن بطوطة ، بعد قرن ونصف من خروج المغول من عزلتهم شرق جبال « الطاى » وشمال صحارى منغوليا ، قائلاً بأن طعامهم من لحوم الخيل والغنم حيث يقدم مسلوقاً ، وبعد أن ينضج يأتى « الباروجى »(٢) وهو مُقَطِّعُ اللحم ، وعليه ثياب حرير ، وقد ربط عليه فوطة حرير ، وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها ، ويكون لكل أمير باروجى (باوورجى) ، فإذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره ، ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء ، فيقطع « الباروجى » اللحم قطعا

---

(١) Carpini. "History...", PP : 16 - 17.

(٢) صحة هذه الكلمة « باوورجى » أو « بوكاوول » ... وهى كلمة مغولية ـــ تركية ، وتعنى المشرف على الطعام والشراب ، وقد كانت من الوظائف المهمة التى لا يوكلها « جنكيز خان » ومن بعده من خلفائه) إلا إلى من يثق فيه . حول هذا الموضوع أنظر المؤلف الروسى الكبير :
W. W. Bartold, "Turkestan Down to the Mongol Invasion", Gibb Memorial Trust New Series, V. London, 1968 & 1977, P : 382 & Note : 4.

صغاراً ، ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطاً بالعظم ، فانهم لا يأكلون منه إلا ما أختلط بالعظم[1] .

حـ ـــ ما يشربه المجتمع المغولى :

أما ما يتعلق بما يشربه الفرد فى ذلك المجتمع الغريب ، فى كثير من مناحى حياته ، فيَعْتبِرُ الانسانُ المغولى حليب الفرس شرابه المفضل ، حيث يحتل قائمة أنواع ما يشربه . فهو يشربه بكميات كبيرة جداً ، فهو لا يكاد يشرب غيره من السوائل إذا ما توفر هذا النوع من أنواع شرابه ، أو يمكن أن يحصل عليه بسهولة . لهذا السبب ، على ما يبدو لنا ، جعل الرجل من أهم مهامه العائلية العناية بالخيول ، وحلب أفراسها وصربها . فمعدل ما يملكه الرجل ثمان عشرة فرساً لشرابه ، حيث يقوم المغولى بفرس وتدين فى الأرض ، على بُعْد مناسب ، ثم يقوم بايصالهما بحبل طويل ، حيث يربط فيه مهر فرسه التى يرغب حلبها ، لكى يحصل الرجل منهم على أية كمية من حليب فرسه . وفى الصباح الباكر يأتى بتلك الفرس إلى مهرها المربوط فى ذلك الحبل ، فتأنس بالوقوف بجانبه ، فتعطى حليبها لمن يقوم بحلبها ، والذى غالباً ما يكون من الرجال . أما إذا كانت الفرس جموحاً ، ولم تسمح لأحد بحلبها ، فانها تربط ، ويؤتى بمهرها ، ويسمح له بالرضع منها قليلاً ، ثم يبعد عنها جانباً ، ويحتل الرجل الحالب مكان المهر ، حتى ينتهى من حلبها . وهكذا ، تُحْلَب فرسٌ بعد أخرى حتى يتجمع لديه كمية كبيرة من الحليب .

يقوم بعد ذلك بوضعه فى اناء جلدى كبير « السقاء » مخصص لهذا الغرض ، ثم يقوم بمخضه بواسطة عصاة غليظة جداً ، ذات رأس كرأس الرجل ، مصنوعة خصيصاً لهذا الغرض ، يستمر فى هذه العملية ، حتى يستخلص منه ما تكون عليه من الزبدة ، ثم يشرب ذلك اللبن .

يصف لنا « وليم الربركى » مذاق هذا النوع من اللبن . فيقول بأنه يلذع

(١) ابن بطوطة ، « رحلة ... » ص : ٣٣٠

لسان المرء أثناء الشراب ، فله طعم كطعم الخل ، وعندما يتوقف عن الشرب ، فانه يترك على اللسان مذاقاً كطعم عصارة اللوز ، ويحدث عند شاربه نشوة روحية وعقلية عجيبتين . ثم يردف « وليم » القول ، بأن هذا اللبن قد يشل الرجل الضعيف الاتزان[1] . إلا أن ابن بطوطه يقول لنا بأنه ذاقه ، ولكنه « ...، لا خير فيه ... »[2] . أما الرحالة الايطالى « ماركو بولو » فيذكر لنا بأنه جيد جداً للشراب ، حيث يعرفون جيداً كيف يصنعونه بطريقة ممتازة[3] .

ان هذا النوع من الشراب هو الشراب المفضل للسواد الأعظم فى المغول . أما شراب الخاصة منهم ، وهم الرؤساء وعليه القوم ، فإنه يُصنَعُ لهم الـ « قرا ــ كزمس Qara - Kuzmos » أى « شراب الكزمس الأسود » . حيث يحلب حليب الفرس بعد حلبه ، ثم يمخض حتى يترسب فى قاع اناءه كل مادة تجمعت أعلاه ، ويبقى كل شيء نقى إلى أعلاه ، ويصبح لونه مثل لون مصل اللبن ، أو المسك الأبيض ، فتعطى الخثالة الى الخدم (وهى مادة بيضاء اللون وذات تأثير لارتخاء الأعصاب والخمول ثم النوم) أما السائل الصافى ، فيقدم إلى الرؤساء وعليه القوم كشرابهم المفضل . ويصفه « وليم الربركى » بأنه شراب ممتاز ، ومنشط جدا ، وهو بعكس ما يقدم للخدم[4] .

تورد لنا بعض مصادر مادتنا شدة حب المجتمع المغولى لحليب الأفراس . ففى هذا الخصوص ، يورد لنا « الربركى » رواية حول الكمية الكبيرة التى كان يستهلكها واحد من أسرة جنكيز خان . كان ذلك الأمير هو حفيد جنكيز خان « باتوين جوجي » ، حيث كانت له مملكة والده التى ورثها هو الآخر عن جنكيز خان . ولقد لعب « باتو » هذا دوراً سياسياً وعسكرياً بارزاً

(١) Rubruck, "The Journey..", Ed., Dawson, PP : 98 - 99.

(٢) ابن بطوطة ، « رحلته » ص : ٣٣٥ .

(٣) Marco Polo, "The Description of the World", Vol. I, P : 171 also : Spuler, "The Mongol History", P : 175.

(٤) Rubruck, "The Journey", P : 99.

فى حياته ، فقد كان قائد جحافل المغول ، أثناء اجتياحها لغرب اسيا وشرق أوربا ، فى حملتهم المشهورة ، كما كان هو الذى يوصل فلاناً أو علاناً إلى كرسى الامبراطور ، لذلك كانت تسميه مصادرنا الأوربية بـ « صانع الملوك »[1] .

يذكر سفير الملك لويس التاسع الفرنسى ، « وليم الربركى » بأن « باتو » كان لديه ثلاثين رجلاً ، وهم مخصصون لتزويد سيدهم « باتو » بما يحتاجه من حليب الأفراس ، وكان كل رجل منهم يحلب حليب مائة فرس . وهذا يعنى أنه كان يجمع حليب ثلاثة آلاف فرس ، فى كل يوم ، وهذا بخلاف أنواع الحليب التى تؤخذ من مصادر غير هذا المورد[2] .

لعل هذا الراوية الأوربى ، الذى شاهد هذا بعينيه ، وكان ممن قابل « باتو » يعنى أن هذه الكمية من الحليب هى ما يحتاجه ذلك الأمير المغولى هو وأسرته بكاملها ، وكذلك كبار رجال بلاطه ، وقادة جنده ، والقيمون على خدمة منازله ، وهم يُعَدُّون بالمئات . وذلك لمراتبة « باتو » السامقة ، بين الأمراء المغول ، حتى أننى لا أجدنى مبالغاً إذا قلت بأن « باتو » كان يعتبر أعلى مكانة من الأمبراطور « منكو » ، الذى كان على عرش المغول ، فقد كان يخطب وده ، ويخشى بأسه أكثر من أى أمير مغولى آخر .

أما إذا لم يكن لدى المرء منهم حليب فرس ، فانه يستعيض عنه بأنواع أخرى من الحليب ، مثل حليب الضأن والماعز ، وحليب الأبقار ، وحليب النوق[3] .

يصنع المغول السمن من حليب الأبقار بشكل أساسى ، بعد أن يستخلصون الزبدة ، وذلك بعد مخض الحليب بالطريقة المذكورة أعلاه ، ثم

---

(١) لمعلومات فى هذا الموضوع ، راجع « سقوط الدولة العباسية » ص ص : ١٤٨ ــ ١٥٦ ، ١٦٠ ــ ١٦٣ وخاصة المراجع والمصادر الواردة فى حواشيه .

(٢) Rubruck, "The Journey...", P : 99.

(٣) Rubruck, "The Journey...", P : 99.

يأتون بالزبدة فيغلونها فتصبح بعد الغليان سمنا . ونتيجة لذلك ، وكما هو معروف ، لا يتلف السمن حيث سبق أن غُلِيَ على النار بطريقة جيدة ، ويحتفظون به إلى وقت الشتاء ، حيث يقل انتاج حيواناتهم من الحليب .

كذلك فإن الأقط يصنع أيضاً من لبن الأبقار ، وذلك بالطريقة التي نعرفها نحن هنا ، فيغلى اللبن حتى يختثر ، ويصبح مادة جامدة ، ويجعل في شكل أقراص صغيرة ، ثم يوضع في العراء عرضة للشمس والهواء ، حتى ينشف حيث يصبح جافاً ويابساً جداً ، ثم يخزن في أوعية خاصة به ، ويحتفظ به حتى فصل الشتاء عندما تقل ، بل وتندر ، المنتجات الحيوانية في هذا الفصل الشديد البرودة ، والقليل في مراعيه . إلا أن المغول لا يأكلون الأقط ، وانما يتبع الطريقة الأخرى ، وهي أنهم يضعونه في اناء ثم يضيفون عليه ماءً حاراً ، يحركونه جيداً حتى يذوب في الماء ثم يشربونه .

أما في فصل الشتاء ، وعندما يقل انتاج حيواناتهم من الحليب ، فانهم يصنعون شراباً ممتازاً من حبوب الأرز ، أو الدخن أو القمح ، إذ أنه يجلب اليهم من الأقطار الزراعية المجاورة في الغرب أو الجنوب ، ويصنع له شراباً من العسل ، لأن الانسان المغولي يبذل جميع الوسائل والمحاولات لئلا يشرب ، على الاطلاق ، الماء كما نشربه نحن ، بطريقة عادية ، وبدون أن يخلط عليه شيئاً آخر قبل أن يشربه[1] .

أما طريقة صنع شراب الحبوب فانهم يقومون بغلى حبوب الدخن ، أو الأرز ، أو القمح ، في ماء (وهذا فقط عندما ينعدم وجود الحليب بأي نوع) حتى يصبح خاثراً ، إلا أنهم لا يأكلونه ، بل يشربونه ، وهو مادة سائلة ، بكميات قليلة جداً ــ كأسة أو كأستين ــ عند الصباح ، ولا يأكل شيئاً طوال النهار ، وفي المساء يأكلون ما يحصل لهم من لحم بعد طهيه طهياً جيداً ، ويشربون المرق بعد ذلك .

(1) John Carpini, "Mongol History", Ed., Dawson, PP 16 - 17; Rubruck, "The Journey...", PP : 95 - 101.

في الأوقات التي يجتمع فيها المغنون ، لمناسبة معينة ، صغيرة كانت أم كبيرة ، فان عوامل الفرح الصاخب يكاد يطغى على اجتماعهم ذلك ، فيكون ما يشربون هو الشيء الوحيد الذي يكون أهم الموجودات بينهم ، وقد يكون هو العامل الأساسي والداعي إلى ذلك الاجتماع . ففي الوقت الذي يشرع فيه السيد الكبير بتناول شرابه فان أحد الخدم يصرخ بأعلى صوته « ها » ثم يدق أصحاب الموسيقى آلاتهم ، ويبدأ الفرح ، والرقص والغناء . ويستمرون على ذلك زمناً ، ثم يذهب كل واحد إلى وجهته .

أما عندما يكون هناك مناسبة ، أو احتفال كبير ، فانهم يجتمعون باعداد كبيرة ، واجتماعهم يصبح بشكل أوسع . وهنا أيضاً ، يكون الشراب ، لا الأكل ، هو الشيء الأساسي ، أياً كان ذلك الشراب ، حليباً ، أو لبناً ، أو ماءً مخلوطاً بالأقط ، أو شربة (وهي المصنوعة من الحبوب) . وتعلو صيحاتهم ، ويصفقون ، ويرقصون على أصوات الموسيقى ، حيث يرقص الرجال أمام السيد ، أو رئيس القوم ، بينما يرقص النساء أمام زوجة ذلك السيد ، أو كبير القوم ، وهكذا يستمر الوضع لوقت قد يطول ، وقد يقصر ، ثم يتوقف الموسيقيون عن العزف ، فيقف الجميع لفترة قصيرة جعلت للاستراحة والشرب .

في بعض الأوقات يحثون شخصاً ما على أن يشرب حتى وأن لم يكن لديه رغبة . فليس هو جيفاناً ولا عطشاً ، وأنه متعكر المزاج ، أو أن لديه مشكلة غطت سماء ليله أو نهاره بسحابة سوداء ، جعلته يعزف عن مشاركة القوم ليلتهم أو نهارهم السعيد . وهنا يذهب بعض الصحاب ، وفي نفسية مرحة ونشوة عالية ، إليه ، ويتقدمون رويداً رويداً حتى يصلون إليه فيجرونه بشدة من كلتا أذنيه ، فيفتح فاه ويصبح بلعومه فاتحاً ، ثم يصفقون ويرقصون أمامه فيقف رجلان إلى جانبيه ، وثالث أمامه ومعه كأس من الشراب الذي يتناولونه في ليلتهم تلك أو في نهارهم ذلك ، فيرقصون ويغنون حوله جيئة وذهاباً ثلاث أو أربع مرات ، وفي كل مرة يناولونه شربته حتى تصبح قريبة من متناول

يده ، فيرجع حاملها إلى الوراء ، للضحك والمزاح حتى يصبح فى حالة نفسية مرحة ، وتصبح لديه الرغبة فى مشاركتهم وقتهم المرح ، بعدها يعطونه شربته ، فيزداد رقصهم وغناؤهم وتصفيقهم ، ويعلو صراخهم الصاخب عندما يشرع ذلك الرجل فى تناول شربته تلك[1] .

وعندما يرغب الرجل منهم فى السفر ، فانه لا يحمل معه زاداً ، كما نفعله نحن هنا ، أو بالأخرى كما يفعله البدوى المسافر ، ولكنه يأخذ معه قربة أو قربتين ، مملوءة من حليب الفرس ، أو غيره من أنواع الشراب ، وكذلك يأخذ اناءً فخارياً ليطبخ فيه لحم ما قد يصيده أثناء سفره . وعندما يقتل الرجل صيداً ، فانه يسلخه ، ويأخذ الكرش ، فينظفه ، ثم يضع فيه ماء ويطبخه على النار ، ويأكل اللحم ، ويشرب ذلك الماء . كذلك يحمل معه خيمة صغيرة من لبد يقيه المطر[2] .

وإذا ما كان على عجلة من أمره ، للقيام بانجاز مهمة أو مشروع معين يتطلب السرعة ، فان الرجل منهم يمشى أياماً كثيرة — قد تتجاوز العشرة — دون أن يأكل طعاماً ، ودون أن يشعل ناراً ، وذلك لئلا تتعطل مهمته وتستغرق وقتاً أطول ينقضى فى طبخ الطعام . وإذا ما تعذر عليهم شرب حليب الفرس ، ونفد ما يملكه من الشراب ، فانه يعمد إلى خيله أو دابته التى يركبها ، فيقطع بسكينته جزءً من أحد شرايين دم ذلك الحيوان ، فيمتص من الدم المتدفق ما يكفيه ، ثم يعيد ذلك الجرح بفركه ، أو سده بأى شىء ، كتراب أو ما شابه ذلك .

وقد يحمل المسافر منهم دماً مجففاً إذا تعذر وجود ما يحمله معه . وعندما يشعر بالحاجة إلى الشراب (والشراب هنا يعنى الطعام والشراب معاً) فانه يأخذ شيئاً من ذلك الدم الجاف ، فيضعه فى قدر أو أى اناء به ماء ، فيتركه حتى يذوب ثم يشربه . كما يحمل معه بعضاً من اللبن المجفف ، وهو الاقط ،

---

(١) (٢) نفس المصدرين المذكورين فى الحاشية السابقة ، ونفس الصفحات

حيث يبلغ زنة ما يحمله الرجل العسكرى منهم ، أثناء القيام بحملة عسكرية ، ما يقرب من خمسين كيلو جرامات . وفى الصباح يصنع له فطورا يتكون من أقط وماء ، حيث يأخذ الواحد منهم ما يقارب وزنه مائتى جرام ، فيضعه فى سقاء فيه ماء ، ويحركه أو يتركه ، حيث يتم ذوبانه أثناء السير من عملية الاهتزاز ، فيصبح كشراب العصير ، فيشربه عند الوقت الذى يحتاج فيه للشراب[1] .

(١) لمزيد من المعلومات فى هذا الموضوع راجع : Marco Polo, "Description of the World", Vol. I, PP : 171 ff; B. Spuler, "History of the Mongol", PP : 176 - 177.

اللباس فى المجتمع المغولى

١ ـ لباس الرجل :

يختلف لباس المرء المغولى ، الذى عاش فى منغوليا قبل وبعد ظهور المغول ، وبرزوهم كقوة ذات سيادة وسلطة دوليتين ، عن لباس أخيه الذى خرج من عزلته فى منغوليا إلى أقطار شرقية كانت أم غربية ، كما يختلف لباس الرجل الفقير عن لباس الغنى ، سواء من حيث النوعية أو الكمية ، كما يختلف لباس الرجل عما تلبسه المرأة المتزوجة . كما تختلف طريقة ارتداء ونوعية اللباس الذى يستر به جسمه ، أو الذى يقيه لفحات الحرارة الحارقة فى فصول الصيف ، وشدة البرد السيبيرى القارص فى الفصول الشتوية .

وعلى وجه العموم ، فان الانسان المغولى (ونحن نعنى هنا المغولى القاطن فى منغوليا) يرتدى ملابس ذات طابع متجانس . فهم فى مبدأ أمرهم ، وداخل مجتمعهم المغلق لم يكونوا يعرفون ما يسمى بـ « الكاب »[١] ، ولا قلنسوة البرونس[٢] ، ولا العباءة ، أو رداءً واحداً يغطى معظم جسمه . إذ أنهم يعتمدون اعتماداً كلياً فى لباسهم على جلود الحيوانات ، سواء من تلك التى يقومون بتربيتها ، أو التى تقع فى قائمة صيدهم . فهم يلبسون سترة ، على شكل « بلوزة » قصيرة ، مصنوعة من البقرم ، أو من المخمل ، أو من مادة ذات تشكيلات مطرزة . وهذا النوع من اللباس يشبه العباءة إلى حد كبير ، إذ أنه مفتوح من الأمام ولكن له فتحة أيضاً من الجهة اليسرى حتى الخصر ، ثم يثنى من على منطقة الصدر ، فيربط من الجهة اليسرى برباط واحد ، أما الجهة اليمنى فانه يحزم بثلاثة خيوط .

ويمكن أن يرتدى الانسان المغولى (الرجال والنساء اللاتى لم يتزوجن)

---

(١) هو رداء بلا كمين ، يطرح على الكتفين .

(٢) هى غطاء يرتديه الفرد ، فيغطى به الرأس والعنق معاً .

أيضاً نوعاً آخر من اللباس شبيه بالثياب ، ولكنها مفتوحة من الخلف ، أو أن تكون على نفس النمط السابق . وهذه الملابس تكون ، كما قلنا ، مصنوعة من الفراء ، بشتى أنواعه ، حيث يجعل الجزء الشعرى منه إلى الخارج ، إذ يلبسه غالباً فى فصل الصيف ، عندما يكون الجو حاراً . وهذا النوع الأخير من اللباس يكون له ذيل من الخلف ، يصل فى طوله إلى الركبتين .

وبشكل عام ، فان الرجل الغنى يلبس لباساً من الفراء فى الأوقات الباردة فى فصل الشتاء ، وغالباً ما يكون لديه ثوبان منها ، فالأول يجعل جزءه الشعرى إلى الداخل ، أى يكون ملاصقاً لجلده ، والثانى يجعل جزءه الشعرى إلى الخارج ، لكى يقيه شدة قرص برودة الثلوج عند تساقطها ، والريح الباردة عند هبوبها ببردها الصحراوى من الجنوب ، أو السيبيرى القارص من الشمال . وعادة تكون هذه الملابس من جلود الثعالب ، أو الذئاب ، أو القرود الأسيوية (التبتية أو الصينية) ، فيلبسونها قبل خروجهم من المنازل إلى العراء . أما فى داخل المنازل ، حيث الجو أقل برودة ، ويميل إلى الدفء ، فانهم يلبسون ملابس أخف من السابقة .

يقوم الأغنياء منهم ، والذين يرتدون هذا النوع من اللباس ، بتزيينها بخطوط من الخيوط الحريرية الرفيعة والدافئة ذات الملمس الناعم جداً[1] .

أما ما يلبسه الفقراء فى المجتمع المغولى ، فيكون من جلود الكلاب ، والماعز ، وما شابه ذلك[2] . وتقوم هذه الطائفة من الناس بزخرفة ملابسها بخيوط مادتها قطنية خشنة . وبشكل عام ، فإن المواد الصوفية ، بشتى مصادرها ، تكوّن عنصراً أساسياً فى اللباس المغولى ، وخاصة فى الأوقات الباردة . كما يرتدون لباساً (من الجلد بدون شعره) يشبه السراويل ، وآخر يلبسونه فى مقدمة الرجلين (على الساقين) كثير الشبه بما يلبسه رعاة البقر ، والهنود الحمر فى أمريكا .

---

(١) (٢) Rubruck, "The Journey..", P : 101.

يحلق الرجل المغولى جزءً من قمة ورأسه ، بشكل مربع ، ثم يواصل الحلاقة من الجوانب الأمامية إلى أسفل ، بشكل مخطط على جانبى الرأس ، حتى يصل إلى الأصداغ . ثم يحلق أيضاً صدغيه ، ورقبته حتى أمام فجوة العنق ، ويحلق جبهته من الأمام حتى نهاية العظمة الأمامية ، حيث يترك خصلة من شعره تتدلى إلى أسفل ، حتى حُجُب العينين . أما الشعر الذى من على جانبى الرأس ومؤخرته ، فانه يتركه ، إذ يجعل منه ضفائر ، ثم يعقصها حول رأسه إلى الأذنين[1] .

ب ــ لباس المرأة المغولية المتزوجة :

تختلف ملابس المرأة ، خاصة من حيث الكيفية لا النوعية ، عن ملابس شريكها فى الحياة من الجنس الثانى ، وكذلك عن المرأة التى لم تتزوج بعد (أى البنت) . فالمرأة المتزوجة ترتدى بلوزة طويلة ومفتوحة من الجهة الأماميةن من أعلى إلى أسفل . أما من حيث النوعية والكمية فلا يوجد فرق بين ما تلبسه المرأة وبين ما يلبسه الرجل .

ولعل الفارق المميز بين الرجل والمرأة المتزوجة هو ما تلبسه الأخيرة على رأسها . وهذا الغطاء ، الذى تلبسه على رأسها يبلغ طوله ذراعاً ، ويكون مصنوعاً من اللحاء ، أو من أغصان الأشجار الرفيعة جداً ، أو من أية مادة شعرية يعثرون عليها . ويصنع هذا الغطاء بشكل ملفوف ، ويزداد فى مساحة محيطه من أسفل إلى أعلى ، وينتهى فى القمة بشكل مدور ، وتبلغ مساحته من أعلى شبرين . ثم يوضع فى نهايته عموداً أو قضيباً طويلاً ورفيعاً ، قد يكون هذا العمود مصنوعاً من الذهب ، أو الفضة ، وغالباً ما يكون من الخشب ، ثم تُزيَّنُ قمةُ ذلك القضيب بريش الطاووس ، وجوانبه بريش ذيل البط الخفيف ، أو بأحجار كريمة . ثم يثبت غطاء رأس المرأة هذا فى غطاء آخر تحته ، يصل حتى الكتفين ، وذلك بحياكته بخيط رفيع أو سير جلدى .

---

(1) Rubruck, "The Journey...", PP : 101 - 102.

تقوم المرأة بعد ذلك بتغطية لباس رأسها الكبير هذا بأكمله أما ببقرم ، وأما بمخمل ، أو برداء من الحرير ، أو غير ذلك ، بعدها يمكن لها أن تحضر عند الرحال ، إذ لا يمكنها أن تخرج أمام الرجال دون أن تكون لابسة هذا الغطاء ، والذى يميزها عن غيرها من النساء الأخريات غير المتزوجات . إذ أنه من الصعوبة أن يميز المرء بين الرجال والنساء غير المتزوجات ، وذلك لتشابه نوعية وطريقة اللباس الذى يرتديه كل واحد منهم . وهناك فارق طفيف جداً وهو أن المرأة تلبس بلوزة أطول قليلاً من تلك التى يلبسها الرجل .

أما النساء الغريبات ، وذوات اليسار ، فانهن يلبسن غطاء الرأس ذلك محلى بأنواع كثيرة من الزركشة ، ثم يشتن ذلك القضيب بإحكام إلى أسفل بقلنسوة ذات فتحة إلى أعلى مخصصة لهذا الغرض ، ثم بعد ذلك ، تعقد المرأة خصلات شعرها من الخلف إلى المنطقة العلوية من الرأس ، وأخيراً تقوم بربط غطاء رأسها هذا بإحكام بحزام من تحت الذقن .

يصف « وليم الربركي » شكل النساء ، اللواتى يرتدين هذا النوع من الغطاء على رأسهن ، قائلاً بأنهن عندما يمتطين صهوات جيادهن يظهرن لمن يراهن من على مسافة بعيدة وكأنهن كتيبة عسكرية ، يلبس كل فرد من أعضائها خوذة ، ويحمل رمحاً ، لأن ما يلبسنه على رؤوسهن يبدو وكأنه خوذ ، وتظهر تلك القضبان على ذراها وكأنها رماح[1] .

حـ ــ لباس الفتاة المغولية :

أما لباس المرأة التى لم تتزوج بعد ، فانه لا يكاد يوجد فارق كبير بين ما تلبسه الفتاة منهم وبين ما يلبسه الرجل حسبما أسلفنا ، إلا أن شعرها أكثر طولاً من شعر الرجل . وفى اليوم الذى يلى زواجها تقوم بحلق شعرها من وسط رأسها إلى المقدمة . ثم تضع عليه غطاء رأس المرأة ، السابق ذكره ، لتصبح متميزة فى مظهرها عن الرجل ، واللائى لم يتزوجن من بنات جنسها بعد ، ثم

(١) Rubruck, "The Journey..", P : 102.

لتستطيع أن تظهر أمام الرجل كغيرها من النساء المتزوجات . وبهذا تكون المرأة قد انضمت مع النساء المتزوجات[1] .

تميل المرأة المغولية إلى السمن منها إلى تناسق القوام ، وذلك بسبب كثرة ما تأكله من المواد الدهنية ، على ما يبدو لنا . ويعتبرون المرأة جميلة كلما قلت فطاسة أنفها ، وصغر حجمه . يقول الرحالة الأوربي « وليم الربركي » بأن النساء يشوهن أنفسهن عندما يصبغن وجوههن بأصباغ تجعل النظر اليهن مؤدياً للعين . ويبدو أن ذلك المنظر المقذى في عين « وليم » لا يبدو كما يقول عنه هذا الرحالة لدى الرجل المغولي ، فقد يكون ذلك جزء من تجملها ، والحفاظ على بشرة وجهها . كما يذكر « وليم » بأن المرأة المغولية لا تلد لها مولوداً وهي مضطجعة على الفراش[2] .

أما أحذية المغول ، فيقومون بصنعها حسب الطريقة المتبعة لدى غيرهم من الأمم من الجلود ، حيث يجففون ابهاب الثيران ، أو الخيول ، فيصنعون منها أحذية جميلة ، كما وصفها « وليم الربركي »[3] .

لا يغسل الفرد المغولي ملابسه ، كما أنه لا يسمح لأحد بغسلها ، وخاصة عندما يكون الوقت ممطراً أو أن الجو ذو عواصف رعدية . وإن أراد غسلها فيكون ذلك في حالات نادرة جداً ، عندما يكون الجو صحواً . وهنا يذكر الجويني بأنه من عادة المغول وقوانينهم بالا يغسل أحدهم ثيابه في جدول ماء جار ، والا يجلس في الماء في النهار ، والا يأخذ ماءً في اناء من الذهب أو من الفضة ، وإن غسل ثيابه ، فعليه ألا يعلق ثيابه في الهواء الطلق لتجف . فانهم يعتقدون بأن أي عمل من هذا النوع يزيد البرق والرعد ، فقد يزيد من هطول المطر ، وخاصة في بداية فصل الربيع حتى نهاية فصل الصيف[4] .

(١) نفس المصدر السابق ص . ص : ١٠١ — ١٠٣ والحاشية رقم ٣ ص : ١٠١ ، أنظر كذلك . Carpini, "The Mongol History..", PP: 6 - 8.

(٢) المصدر السابق ، ص : ١٠٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ٩٧ .

(٤) الجويني ، « جهانكشاى » ، حـ ١/ص : ١٢٥ ، الترجمة الانجليزية ، حـ ١/٢٠٤ — ٢٠٥ .

ويقول « وليم الربركي » بأن المغول يعتقدون بأن عمل مثل هذا يغضب الرب ، فمتى وضعوا ثيابهم في العراء لتجف بعد الغسل ، فان السماء ترعد . ومن فعل عملاً من هذا النوع فانه يقع عرضة للضرب ، ويجردون منه ملابسه ، وذلك لأنهم يخشون الرعد ويهابونه بشكل غير عادي . فعندما تبدأ السماء ترعد فانهم يخرجون كل أجنبي من منازلهم . بعد ذلك يلف كل فرد منهم جسمه في لبد أسود فيختبئون في طياته حتى ينتهي الرعد[1] .

يردف الجويني ، حول هذا الموضوع ، القول بأن السماء عندما تبدأ تقصف بالرعد ، فانهم : « يجعلون أصابعهم في اذانهم من الصواعق خذر الموت ... » وان لمع البرق بشدة حيث : « ... يكاد البرق يخطف ابصارهم ... »[2] . وفي كل سنة غالباً ما يحدث أن يُصْعَقُ أحدُهم بصاعقة رعدية ، فإذا ما وقع على شخص ما من بينهم بلاء من هذا النوع فان أفراد مجتمعه يقومون بعمل شيء معه ، وهو أن يطردوا أسرته وكل من يلوذ به وجميع أفراد عشيرته خارجاً عن بقية أعضاء القبائل الأخرى ، فيصبحون منبوذين ، ويعيشون حياة البعير الأجرب لمدة ثلاث سنوات . وطوال هذه المدة ، لا يسمح لأحد منهم أن يدخل مخيم أو مساكن الملك ، أو الأمراء الآخرين . كما يحدث الشيء عينه عندما تقتل الصاعقة شيئاً من أي قطيع من قطعان حيواناتهم ، فان أصحاب ذلك الحيوان ، أو الحيوانات المصعوقة يمرون بنفس التجربة لمن مات لهم انسان بصاعقة ، حيث يُطْرَدُون من مجتمعهم لعدة أشهر . وإذا ما حصل شيء من هذه الأحداث فانهم لا يأكلون طعاماً طوال الأيام الباقية من ذلك الشهر ، وفي نهاية ذلك الشهر يقومون بعمل احتفال بمناسبة انتهاء الشهر المشؤوم[3] .

---

(١) Rubruck, "The Journey...", P : 103.

(٢) قرآن كريم ، سورة البقرة (٢) ، آيات : ١٨ ــ ١٩ .

(٣) الجويني ، « جهانكشاى » حـ ١/ص : ١٦٣ ، الترجمة الانجليزية ، حـ ١/٢٠٥ وهي بعنوان : "History of the World Conqueror", translated by : Prof.. J. A. Boyle.

د ـــ لباس المرأة المغولية المسلمة :

بعد أن خرج المغول من عزلتهم فيما وراء جبال الطاى غرباً ، وجبال خنكاى شرقاً ، وبرزوا كقوة دولية مسيطرة على مساحات شاسعة من عالمهم فى ذلك الوقت ، نجد أن لباسهم قد تغير بشكل جذرى ، وتطور من حيث النوعية والكمية ، ومن حيث الشكل العام . فقد كان انفتاحهم على عالم وقتهم المتحضر ، ثم ما جنوه من ثراء ـــ كأصحاب الغلبة فى تلك المجتمعات ـــ نجد أن المرأة المغولية أصبحت بديعة اللباس ، غاية فى التزين والعناية الفائقة بمظهرها ، فأخذت ترفل فى لباس من الحرير الخالص ، يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها ، لا ! بل وله اذيال يرفعها من الأرض عدد من جواريها اللائى يمشين من ورائها لهذا الغرض .

ينطبق هذا ، بشكل أوسع على النساء المغوليات اللواتى خرجن من منغوليا إلى الأراضى الصينية ، أو غرباً إلى ايران وأقاليم القبتشاق والتركستان وما وراء النهر . وحول المرأة المغولية فى الأراضى ، التى أصبحت جزءً من امبراطورية المغول ، فى أقليم القبتشاق ـــ وهى أراضى « مملكة القبيلة الذهبية » ، نجدنا الرحالة المسلم شمس الدين بن بطوطة عن نساء ثلاث طبقات فى المجتمع المغولى الجديد تتميز كل واحدة من هاتيك الطبقات عن الأخرى .

ا ـــ أولى تلك الطبقات هى طبقة نساء الخان المغولى الحاكم ، فى ذلك الأقليم الواسع الأرجاء ، حيث يقول ابن بطوطه بأن كل ملكة (وهى الخاتون) تركب فى عربة (وهذه العربة بمثابة بيت لها أو أحد من بيوتها العديدة) فتجلس وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى « أُولُون خاتون » أى وزيرة الملكة ، وعن شمالها امرأة أخرى تسمى « كُجُك خاتون » أى حاجبة الملكة ، وبين يديها ست من الجوارى الصغار ، يقال لهن البنات ، وهن فائقات الحسن والجمال ، ومتناهيات الكمال فى الزينة ، ومن ورائها اثنتان منهن تستند إليهما .

أما لباسها ، فيصفه ابن بطوطه قائلاً بأن ثيابها مصنوعة من الحرير المرصع بالجوهر ، كذلك لباس الوزيرة والحاجبة مصنوع أيضاً من الحرير المطرز بالذهب . أما اللباس الذى تضعه هذه المرأة على رأسها ، والذى سبق ذكره ، فيصفه ابن بطوطه قائلاً بأن « الخاتون » تلبس على رأسها « البغطاق » وهو كثير الشبه بتاج صغير ، يناسب رأس المرأة وحجمها ، وقد زين من قمته بريش الطواويس الزاهى الألوان . أما الحاجبة والوزيرة فعلى رأس كل واحدة منهن مقنعة مزركشة الحواشى بالذهب والجوهر . أما البنات فعلى رأس كل واحدة منهن قبعة مستطيلة ومخروطية الشكل — بشكل الأقروف ، وفى أعلاها دائرة ذهبية مرصعة بالجوهر ، وريش الطواويس من فوقها ، حيث تزيد من تزيينها .

ب — **أما نساء الطبقة الثانية** ، فى مجتمع المغول الجديد ، فهن نساء الأمراء . ونساء هذه الطبقة كن أيضاً على جانب كبير من الأهمية ، وعلو المكانة . فقد كانت الواحدة منهن تخرج من بيتها لتزور صديقة ، أو لقضاء بعض شؤونها ، أو للتنزه ، أو تنزل من عربتها ، بعد رحلة ، قد تطول أو تقصر ، حسب مسافة الطريق ، وهى كلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وبين يديها أربع جوار ، فاتنات الحسن ، بديعات الجمال ، رائعات اللباس ، وعندما تسير إلى زوجها فانها تذهب ومعها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ، وقد يكون معها منهن نحو ثلاثين جارية من جواريها يرفعن اذيال ثيابها من خلفها ، لئلا تتعرض للمس تراب الأرض ، أو لشىء من وساختها ، حيث يتم رفع اذيال هاتيك الملابس من عرى ملحقة بتلك الأذيال مخصوصة لهذا الغرض ، وفى هذه الحالة تمشى المرأة المغولية تلك وهى متبخترة ، وفى جلال عظيم ، يزداد أو يقل حسب مكانتها ومكانة زوجها .

حـ ــ **أما نساء الطبقة الثالثة ، فهن نساء التجار والباعة ، وأصحاب الأسواق** . وقد شاهدهن ابن بطوطه ، كما شاهد غيرهن . وهنا يحدثنا هذا الرحالة ، قائلاً بأن المرأة ، من نساء هذه الطبقة تكون فى عربة من عرباتها الخاصة ، والخيل تجرها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجوارى قد جعلن خصيصاً لرفع أذيال ثيابها وقت نزولها أو تجوالها ، وفى حلها وترحالها . وقد جلست وعلى رأسها « البغطاق » وقد رصع بالجوهر الثمين ، حيث قد زين أعلاه بريش الطواويس ، ذى الألوان البديعة ، فتزداد تلك المرأة جمالاً ورواقاً[1] .

(1) ابن بطوطه ، « رحلته » ، ٣٣٩ ــ ٣٣٤ . راجع كذلك : Marco Polo, "Description of the World", Vol. I, 171; also B. Spuler, "History of the Mongol", P : 175.

٣ ــ المسكن فى المجتمع المغولى

١ ــ الشكل الخارجى للمنزل المغولى :

كان المجتمع المغولى ، وما زال معظم سكان منغوليا فى الوقت الحاضر ، مجتمعاً بدوياً ، حيث يعتمد على رعى وتربية حيواناته . فهو مجتمع رعوى بشكل عام ، يعيش حياة التنقل والترحال . لذلك ، فإن الرجل المغولى أوجد لنفسه مسكناً مناسباً لتلك الحياة الغير مستوطنة لبقعة بعينها ، أو مكان مخصوص يقضى فيه حياته مستقراً ، كما يفعل الرجل الذى ربط نفسه بمكان معين من الأرض لحرثها وزرعها ، وخصوصاً ما استنبته عليها . لذلك ، فان الانسان فى مجتمع المغول ، إذا ما حل فصل الربيع شرع بعد العدة للتحرك تدريجياً إلى ناحية المناطق الشمالية من البلاد ، وذلك هربا من فصل الصيف ، الذى تكون فيه درجة الحرارة شديدة الإرتفاع ، ولا يكاد يطيق تحملها . لذلك فانه يتحرك بمنازله ، أو بمنزله حسب حالته الاجتماعية ، ومواشيه التى تقل أو تكثر ، حسب ظروفه التى تحكم سرعته أثناء رحلته الاصطيافية ــ أن حق لنا أن نسميها بهذه التسمية . وتتدرج درجة حرارة الجو فى الانخفاض ، حتى تصل قافلته إلى أقصى ما تستطيعه شمالاً ، سعياً وراء اعتدال الجو ، وثَمَّ يعد العشب والكلاء المناسبين ، ثم وفرة المياه ، حيث الأنهار ، والجداول ، والبحيرات ، وفوق ذلك كله اعتدال الجو له ولمواشيه . أما إذا جاء وقت بدأ فيه الجو يميل إلى البرودة ، منذراً بقرب وصول الشتاء ، وبالذات فى أواخر فصل الخريف ، فان المغولى يبدأ رحلة العودة ، حيث يعيد ادراجه متجهاً ناحية الجنوب ، ليقى نفسه وماشيته برد سيبيريا الشتوى القارص ، وهكذا دواليك على هذه الوتيرة من الحياة التنقلية والمترحلة بين الشمال والجنوب .

وعلى العموم ، فان المغولى ــ وحيثما ذهب ــ ولأى غرض كان تنقله ذاك أو رحلته تلك ، وحتى ان كان ذلك السفر لغرض الحرب ، فانه يصطحب معه منزله محمولاً جاهزاً ، أينما ذهب وحيثما سار .

فالرجل المغولي (أو بالأحرى المرأة المغولية أو هما معاً) يصنع منزله بصفة أساسية من أغصان الشجر ، ويستخدم الأعواد الخفيفة ، ذات الاستقامة ، كمادة أولية في عمل منزله . فيقوم بتصفيفها ، وحزمها بشكل مرصوص بعضها بجانب بعض ، وفي حالة غاية في الأحكام المترابط والقوة . فيحيكها بصورة تجعل رؤوس الأعواد مجتمعة في وسط سقف المنزل بشكل مخروطي ، حيث تنتهي عند أعلاها بكوة ، هكذا ، حتى تنتهي عملية بناء المنزل ، وتكون القاعدة ، التي يقوم المسكن عليها ، دائرة من العصي (أو الخشب) الغلاظ ، حيث أن تلك الأعواد تحبك حبكاً جيداً ، ثم تربط في تلك العصي بقوة وأحكام . ومن خلال تلك الفتحة أو الكوة العلوية في سقف المنزل ، التي هي مجمع رؤوس الأعواد ، يدخل الضوء إلى داخل المنزل ليضيء لساكنيه . وكذلك فان تلك الكوة تخدم غرضاً آخر ، وهو أن دخان نيرانهم الكثيف ينفذ من خلالها ، حيث توقد في وسط أرضية المنزل ، والذي يزيد من شدة كثافة دخان مواقدهم ان القوم يستخدمون روث الحيوانات بشكل أساسي في مادة وقود تلك النيران .

ان هذا المنزل ، أو البيت ، شبيه لما رآه وسكنه ابن بطوطه ، أثناء رحلته في بلاد القبيلة الذهبية في أقليم القبتشاق ، بل أنه يكاد ينطبق على النموذج العام لمسكن الانسان المغولي ، حيث يقول هذا الرحالة المغربي بأنه أعطي بيت يسمى عندهم (يعني عند مغول القبيلة الذهبية) « الخرقة »[1] . وهو عصي من الخشب تجمع رؤوسها فتصبح شبه القبة ، وتجعل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح ، ويسد متى احتيج إلى سده ، ومنها ينفذ دخان موقدهم[2] .

بعد ذلك ، وكما سبق وذكر هذا ابن بطوطه ، يقوم المرء المغولي بعمل غطاء

---

(١) هذه الكلمة في الحقيقة هي « الخركاه » كلمة فارسية تعني الكوخ ، أو الخيمة ، وقد تعني السرادق .

(٢) ابن بطوطه ، « رحلة ابن بطوطه » ، ص : ٣٠٠ .

خارجي لبيته ، يصنعه من اللبود الأبيض . ومع هذا ، فهو في أغلب الأحيان يجعل فوق غطاء منزله من الخارج غطاءً خارجياً آخر ، أي أنه يجعل فوق غطاء بيته المصنوع غالباً من اللبود ، غطاء ثانياً . وهذا الغطاء الآخر يستخدم فيه مادة الكلس ، أو الصلصال الأبيض . بعد ذلك يقوم بذر مسحوق أبيض ، غالباً ما يكون مسحوق العظام ، ليجعل منزله أكثر تلألؤ وأشد بياضاً . وفي بعض الاحايين يجعل المغولي لون منزله من الخارج أسود .

أما المنطقة العلوية ، التي تحيط بالفتحة ، أو الكوة ، وهي مصدر النور والهواء ومنفذ الدخان ، فانهم يزينونها بتشكيلات من الألوان المختلفة ، حيث تجعل منظرها جميلاً . ثم يزين مدخل داره ، والمصنوع ، كما قلنا ، من اللبود ، برسوم وأشكال متعددة الألوان ، تنعكس فيها البيئة المغولية . وغالباً ما تكون تلك الرسومات على شكل طيور أو حيوانات ، بشتى أنواعها ، أو أشجار ، وخاصة من النباتات المتسلقة ، أو مياه ، كالأنهار ، والبحيرات .

قد يقيم المغولي منزله ذاك على الأرض ، وهذه حالة قليلة ، وغالباً ما يكون هذا النوع من المنازل صغير الحجم لكي يسهل عليه رفعه ليوضع على عربة مخصصة ، لنقله أثناء السفر أو التنقل والترحال . ولكنه في الغالب يقيمه فوق عربة مخصصة . وعندما يرغب في السفر أو الارتحال من مكانه ذاك ، يأتي ببعض حيواناته ، أمام ذلك المنزل ، ثم يربط مقدمة المنزل (أو العربة المنزلية) ان صح لنا القول بهذا ، في رقاب أو ظهور تلك الدواب ، وتقوم بجرها وهي مقامة على وضعها . لذلك فهم لا يعانون من بناء منازلهم عندما يحطون رحالهم . وقد يقوم بانزال بيته هذا من على العربة ، فيجعله على الأرض ، وخاصة تلك المنازل التي روعي فيها صغر الحجم عند اثارتها ، حيث يستطيع ذلك ، وبشكل سهل ، لأنه خفيف الحمل صغير الحجم ، وفي هذه الحالة تساعده زوجته ، أو زوجاته (اللاتي يقمن هن بهذه العملية في أغلب الحالات ، إذ أن هذا النوع من العمل هو من اختصاص النساء عندهم . أما إذا كان المنزل كبير الحجم ، ويراد وضعه على الأرض ، وهذا بطبيعة الحال عندما

يكون وقت الاقامة لمدة أطول فانه يتساعد على انزاله مجموعة من الناس ، يختلفون فى العدد باختلاف حجم البيت وكبره .

يختلف حجم منزل ، أو منازل ، الرجل المغولى باختلاف مكانته فى مجتمعه وبين قومه من ناحية ، ثم مدى ما يتمتع به من ثروة وجاه من ناحية ثانية . كما يختلف العدد الذى يملكه من هذه المنازل باختلاف العدد الذى يملكه تحت يده من الزوجات ، والاتباع والخدم والحشم . فبعضهم لا يملك إلا منزلاً واحداً فقط ، صغير الحجم مقاماً على عربة صغيرة أيضاً ، وقد يمتلك المرء منهم اعداداً كبيرة من المنازل ، قد يصل إلى أكثر من مائتى بيت ، حسب مكانته وثروته ، كما قلنا آنفاً ، إذ أن لكل زوجة من زوجاته بيتاً أو أكثر ، كما أن لكل جارية ، أو خادم تحت خدمته بيتاً أو بيوتاً . وفى الحقيقة فانه قد يصل عدد البيوت التى تملكها احدى زوجات الرئيس ، أو الخان المغولى إلى أكثر من أربعمائة بيت .

وحول هذا الموضوع ، يحدثنا الرحالة المسلم « ابن بطوطة » ان « الخاتون » (وهو يعنى هنا الملكة زوجة الخان المغولى محمد أزبيك)[1] يمشى وراء عربتها مائة عربة ، فى كل عربة الثلاث والأربع من الجوارى الكبار والصغار ، وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر وتحمل خزائن الخاتون ، وثيابها ، وأثاثها ، وطعامها ، ومع كل عربة غلام موكل بها ، وهو متزوج باحدى الجوارى ، إذ لا يقبل من لم يكن متزوجاً ان يخدم فى العربات المنزلية تلك[2] .

أما « وليم الربركى » فقد سبق رحالتنا المسلم ابن بطوطه بما يقارب مائة سنة ، فعدد لنا منازل المغول ، إذ يذكر بأن الأمير « باتو » كان يملك ستاً

---

(١) هو أحد الخانات المغول الذين حكموا مملكة المغول المغولية فى القبيلة الذهبية ، حكم من سنة ٧١٣ هـ/١٣١٣ م إلى سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤١ م . وهو كما يعرف اعتنقوا الاسلام وحكموا وساروا بمنهجه فى شتى مناحى حياتهم .

(٢) ابن بطوطه ، رحلته ، ٣٣٤ . أنظر كذلك :
Carpini, "History of the Mongol", Ed., ; Dawson, P : 8; Rubruck, "The Journey...", 93 - 5.

وعشرين زوجة ، وان لكل زوجة منهن منزلاً كبير الحجم خاص بها ، ولا يدخل ضمن ذلك العدد الكبير من البوتات الصغيرة الحجم ، التى توضع إلى الخلف من كل منزل كبير(١) . أما من حيث جمال هاتيك المنازل المغولية فيذكر بأنها غاية فى الجمال ، ولعله كان يقصد بذلك النوع الجميل منها تلك التى يمتلكها الأمير « باتو » . ثم يقول بأن المرأة تقوم ببناء بيت خاص بها على عربة . يصف لنا الرحالة الأوربى « وليم الربركى » ذلك المنزل بأنه غاية فى الأحكام ، وأنه عمل متقن ، وأنه فى منتهى الجمال ، بحيث أصبح من الصعب عليه أن يقوّم بعمل رسم أو وصف كامل لجمال ذلك المنزل ، الذى تصنعه المرأة المغولية لنفسها ، كما أنه ويتمنى بأنه كان رساماً ، ليرسم لنا شكله الرائع ، ومنظره البديع(٢) .

أما حجم المنزل المغولى ، فكما قلنا ، يتراوح ما بين الصغير ، والمتوسط ، والكبير . فالصغير منها يقام على عربة صغيرة يجرها حيوان واحد وهذا الحيوان قد يكون حصاناً ، أو ثوراً ، أو جملاً . أما الكبير منها فقد يبلغ عرضه ، من جانب إلى الجانب الآخر ، ما يقارب تسعة أمتار (أى ثلاثين قدماً تقريباً) . وقد قام السفير القس « وليم » بقياس المسافة التى تفصل بين عجلتى العربة ، من جانب إلى الجانب الآخر ، فوجد أنها حوالى ستة أمتار (أى عشرين قدماً) ، لذلك فالمنزل المقام على عربة من هذا النوع ، يبرز عن عجلة العربة مسافة أكثر من متر ونصف المتر (خمسة أقدام) من على كل جانب من جوانب العربة(٣) .

فإذا ما أراد المرء منهم الرحيل من مكان اقامته إلى مكان آخر وأراد أن يستخدمه لهذا الغرض ، حيث تقوم الحيوانات بجر هذه المنازل ، الصغير منها

---

(١) Rubruck, "The Journey. ", 95.

(٢) نفس المصدر ، والصفحة ، وكذلك الصفحة السابقة لها

(٣) نفس المصدر السابق ، والصفحة ، أنظر كذلك Marco Polo, "Description of the World", Vol. I., PP - 168 9; B. Spuler. 'History of the Mongol". P 172

والكبير على حد سواء ، ويختلف عدد هذه الحيوانات المستعملة لجر هذا النوع أو ذاك من المنازل ، باختلاف حجمه . فالمنزل الكبير — مثلاً — قد يُستخدم لجره اثنان وعشرون ثوراً ، حيث يوضع أحد عشر ثوراً ، جنباً إلى جنب ، في صف عبر حجم عرض العربة ، بينما توضع الأحد عشر ثوراً الأخرى أمام الأولى ، فتجر المنزل بحبال مثبتة بأحكام في سارية كبيرة جداً ، توضع في مقدمة العربة ، وهي عادة في حجم سارية السفينة . ويقف السائق في باب المنزل يدير عملية السير أثناء هاتيك الرحلة ، دون عناء يذكر[1] .

عندما يحط المغول رحاله ، فانه يقيم منازله متجهة على الدوام إلى ناحية الجنوب ، ثم تقوم الزوجة الكبرى (أي الزوجة الأولى) باقامة منزلها في أقصى الجهة الغربية من المخيم ، ثم يلي منزلها منزل الزوجة التي تحتل المرتبة الثانية ، ثم التي تليها ، ثم التي تليها ، وهكذا ، واحدة تلو الأخرى — حسب درجتها — حتى الزوجة الأخيرة التي يكون منزلها في آخر المخيم من جهته الشرقية . ويفصل كل بيت عن البيت الآخر مسافة رمية الحصاة . كما يذكر لنا ذلك « وليم الربركي » ، في رحلته المشهورة تلك ، ويجعل بيت سيد المخيم إلى الناحية الشمالية من منازله ، وبيوت النساء إلى الناحية الشرقية ، أي إلى اليسار من رجالهن عندما يجلس أحدهم في داره ، وهو متجه إلى الجنوب ، وتقام منازل الرجال في ذلك المخيم إلى الجهة الغربية ، أي إلى اليمين من منزل الرئيس . بناءً على ذلك ، فان منازل الرجل المغولي ، وخاصة الأمراء وعلية القوم ومشايخ العشائر ، تبدو وكأنها مدينة ، ولكنها قليلة السكان من الرجال[2] .

هناك نوع آخر من بيوت العربات ذات الحجم الصغير ، حيث يقوم بجر هذا النوع حيوان واحد فقط ، جواد أو جمل ، أو غيرهما ، ولكن غالباً ما

(١) Rubruck, "The Journey...", 94.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة . وقد طلق كلمة « أوردا Orda » على ذلك المخيم المغولي . وهذه الكلمة « أوردو Ordo » كلمة تركية مغولية ، تطلق على مناطق نفوذ هذا الرجل ، أو ذلك الأمير ، أو أراضي ومساكن العشيرة المغولية .

يكون جملاً ، وهذا النوع من العربات المنزلية مخصوص لنقل الفراش ، واللباس ، وما غلى ثمنه ، من أنواع الزينة ، من ذهب وفضة ، وغير ذلك . ويوضع هذا النوع من حاجيات المغول فى صناديق يصنعونها أيضاً من فروع وأغصان الأشجار ، ذات الاستقامة خصيصاً لهذا الغرض . ثم يصنعون لكل صندوق غطاءً أو سقفاً مدوراً ، من نفس تلك الأعواد ، والعصى الصغيرة ، ثم يجعلون لها باباً صغيراً فى نهايته من الامام ، وبعد ذلك يغطونه بلبد أسود اللون ، ومبلول إما فى حليب الغنم ، أو بالودك (وهو الدهن الذائب من شحم الحيوانات ــ أو الحميس) وذلك لتحمى محتويات ذلك الصندوق من أن يصلها المطر ، أو أن تبتل بالماء ، عند عبور نهر أثناء السفر أو التنقل والترحال .

يقوم المغول بتلوين هذه الصناديق برسوم وصور ذات ألوان زاهية ، وأشكال مختلفة . ويجعلون هذه الصناديق فى تلك العربات المنزلية حيث يقومون بربطها بأحكام ، وتمثل تلك العربات حرزاً مكيناً لها ، فلا تنزل عند حط الرحال ، وانما تظل داخل العربة ، وتؤخذ الأشياء أو الحاجيات من داخل تلك الصناديق ، وتعاد على حالها السابق ، كما كانت عليه ، بكل سهولة ويسر ، وذلك من خلال أبوابها الموجودة فى الأمام[1] .

تصنع هذه العربات بشكل عال بخلاف بقية العربات ، وذلك لتناسب ربطها فى ظهور الجمال التى تقوم بجرها ، ثم لئلا يصلها الماء عندما يعبر المغول نهراً ما ، أثناء الترحال ، من مكان إلى آخر .

وفى الحقيقة ، فان المغول لا يعتبر رجلاً مسافراً عندما ينتقل من مكان إلى آخر ، فهو مسافر ، وهو فى نفس الوقت مقيم ؛ لأنه يسكن داخل منزله الذى تحمله العربات وتجره الدواب (خيول ، أو أبقار ، أو جمال) ، فهو « ... ،

---

(١) Rubruck, "The Journey. ", 94.

(٢) Ibid., P : 94.

يتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب ، وهو فى حال سيره ، والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت ... »[1] .

وإذا ما كان المغول فى حالة السفر ، فانهم فى أغلب الأحيان يسيرون فى شكل مجموعات ، شبيه بالقوافل الاسلامية فى درب الحجاز ، يرحلون وقت صلاة الفجر ، وينزلون فى وقت الضحى ، ويرحلون بعد الظهر ، وينزلون فى وقت العشى ، وإذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر من على العربات ، وسرحوها للرعى ليلاً أو نهاراً[2] .

وعندما يحط المغول الرحال فانهم يضعون واجهات منازلهم بالشكل الذى أوضحنا أعلاه ، حيث يقومون بترتيب تلك العربات المنزلية ، والمخصصة لحمل الصناديق الخاصة بأشيائهم الثمينة ، صفين من المنازل ، والعربات الأخرى ، وتبدو وكأنها بين حائطين[3] . وكلما كثر عدد زوجات الرجل المغولى ، وزاد ثراؤه كلما ازدادت منازله من هذا النوع وذاك . لذلك فانه يبدو مخيم رجل موسر وكأنه مدينة كبيرة ، واسعة الأرجاء . كما أن تلك المخيمات غالباً ما تكون كثيرة النساء والاتباع ، وقليلة الرجال جداً[4] .

بعد مضى أكثر من مائة سنة من رحلتى « جون البلانو الكربينى ووليم الربركى » يصف لنا الرحالة المسلم « ابن بطوطه » المنزل المغولى الذى يقام للسكنى فى أقليم « الدولة الذهبية المغولية » ذلك الوصف الذى لا يكاد يختلف عن ذلك المنزل ، الذى كان يسكنه المغول ، فى موطنهم الأصل ، فى منغوليا ، منذ مئات السنين . ويبنى البيت على شكل قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض ، بسيور من الجلد الرقيق ، ثم يجعل على عربة خاصة لحمله فى

(١) أنظر ، ابن بطوطه ، رحلة ابن بطوطه ، ص : ٣٣٤ ، أنظر أيضا الصفحات : ٣٣٠ ــ ٣٣١

(٢) نفس الحواشى الثلاث السابقة ، ونفس الصفحات .

(٣) Rubruck, "The Journey...", 94.

(٤) Ibid, P 95.

الحل والترحال ، حيث أنها خفيفة الحمل . ثم تكسى من الخارج باللبود أو الملف ، وهو من الجوخ ، ويكون فيها طبقات مشبكة ، أى شبابيك عليها ستار مخلخل ، بحيث يستطيع من يجلس فى داخل هاتيك المنازل من رؤية الناس فى الخارج ، فى حين لا يستطيع أحد أن يرى من فى داخل تلك المنازل . وهى تنقل على عربات ، ذات عجلات ، بحيث يكون لكل عربة منها أربع بكرات كبار . ومن هذه العربات ما يجره جوادان ، أو فرسان ، ومنها ما يجر بأكثر من ذلك . كما تجرها أيضاً البقر والجمال ، حسب حال العربة الواحدة ، من حيث حجمها ، ومن حيث ثقلها أو خفتها . أما السائق فانه يركب فى مقدمة العربة ، على سرج معد ومريح ، وفى يده سوط يحثها به للمشى قدماً ، وعود كبير يوجهها به إذا ما عاجت عن القصد ، أو انحرفت عن الوجهة التى يريدها .

وقد شاهد « ابن بطوطه » قافلة مغولية من هذا النوع ، تنتقل من مكان إلى آخر ، فيصفها لنا قائلاً : « وأقبلت المحلة[1] ، ويسمونها الأرد[2] ، بضم الهمزة ، فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعداً فى الهواء ، وهم يطبخون فى رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم ، فإذا بلغوا المنزل نزّلوا البيوت عن العربات ، وجعلوها على الأرض ، وهى خفيفة الحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت[3] .

---

(١) يعنى قافلة الركب عندما يرتحل القوم بمنازلهم ويحطون فى مكان جديد .

(٢) مر معنا سابقا كلمة « أوردو » وليس « أرد » كما ذكرها ابن بطوطه . وهى كلمة تركية مغولية ، تعنى المخيم وساكنيه ، أو موطن قوم ينزلون فى مكان معين . وعادة تطلق على كل مخيم مغولى تحت رئاسة احدى زوجات أمير ما . وقد عمم معناها هنا ، فشملت كل الركب وما حمل . كان « بركه خان » (٦٥٥ ــ ٦٦٥ هـ/١٢٥٧ ــ ١٢٦٦ م) أول مغول أسلم ، وقد نشر مغول « أقليم القبجاق » الاسلام ، وأضحى سكان هذا الأقليم مسلمين . وقد زار ابن بطوطه ذلك القطر المسلم أيام السلطان محمد أوزبك التاسع .

(٣) أنظر رحلة ابن بطوطه ، ص ٣٣٠ ــ ٣٣١ .

ب ــ الشكل الداخلي للمنزل المغولي :

للبيت المغولي صفة معينة ، وترتيبا خاصاً يظهر به من الداخل ، لذلك فان ترتيب أي منزل ينطبق بخلافيره على المنازل المغولية الأخرى في شتى أنحاء أقاليم منغوليا سواء أكان ذلك قبل خروج المغول من عزلتهم التي كانوا يعيشونها ، أو فيما بعد ذلك . فلو دخل المرء بيتاً واحداً ثم ذهب إلى بقية المنازل الأخرى لوجد نفس النظام ، وعين الترتيب ، كلها على وتيرة واحدة ، وشكل موحد ، حيث يقوم المرء المغولي بتقسيم منزله من الداخل إلى أقسام معينة كل قسم منه مخصص لأداء غرض معين من الأهداف الاجتماعية هناك ، فنجده خصص لكل قسم من أسرته ، أو ضيوفه ، أو خدمه ، أو أطفاله ، أو حاجياته ، أو أمتعته ، أو حيواناته ، مكاناً معيناً في داخل ذلك المنزل . فلو تصورنا المنزل على شكل خيمة كبيرة مدورة الشكل ، حيث هو الطابع العام للمنازل المغولية ، يفتح بابها إلى الجوانب ، إذ قد تكون هذه الظاهرة الاجتماعية من أهم مميزات منازل المجتمع عندهم ، وجعلنا أرضها من الداخل أربعة أقسام ، وذلك بوضع خط من منتصف مدخل الباب ، وحتى نهاية الخيمة ، ثم قسمناه بخط آخر من المركز واتجهنا بالخط يميناً ويساراً حتى نهاية المساحة الأرضية ، التي تحتل الخيمة أرضها ، لسهل علينا معرفة نظام منزله من الداخل . فلنبدأ من مدخل الباب ، ونتجه يميناً ثم ندور في داخله دوره كاملة حتى نخرج من الجهة اليسرى للباب .

عندما يدخل المرء من الباب ، فانه أول ما يجد على يمينه وعلى يساره مكاناً وقد خصص للحيوانات الصغيرة ، كالأغنام ، والماعز ، ... الخ . يليها مباشرة مكان جعل مجلساً للخدم والفقراء ، توضع الأواني والأمتعة المنزلية إلى الجهة اليمنى مجاورة لحافة المنزل ، ثم يجلس أمامها النساء من أهل البيت ، يقابله من اليسار في الناحية الثانية مكان خصص لجلوس الرجال ، وهو يقع في الجهة الثانية المعاكسة . أما النساء الزائرات فقد جعل لهن مكان أمام النساء الجالسات إلى اليمين حيث يقابله من الجهة الثانية من البيت ، أي إلى اليسار ، مكان

خصص مجلسا للرجال . أى أنهم يجلسون أمام الرجال من أهل البيت ، كنوع من اكرام الضيف ، أو الزائر ، وذلك باجلاس الزائرين ، رجالاً كانوا أم نساء ، فى مقدمة صفوف الجالسين من أهل البيت . أما موقد النار ، فانه يحتل المركز الوسط من البيت المغولى . ثم يلى المساحة المخصصة لموقد النار ووقودها ، مكان جعل لجلوس الأقارب ، ثم بعده مكان الأطفال ، ثم مكان جلوس المضيفة (أى صاحبة المنزل) ، ثم يليه مكان المضيف (أى صاحب البيت) . يقابل هذين المكانين المخصصين لرب البيت وسيدته ، فى الجهة المقابلة ، مكان مخصص لضيف الشرف من الزائرين لهذه الأسرة ، حيث يقع هذا المكان إلى اليمين من مجلس صاحب الدار ، عند جلوسه وهو متجه إلى ناحية الجنوب ، إذ أنه يجلس على هذه الهيئة على الدوام . أما المكان المخصص للمخدع (أى فراش النوم) فهو فى آخر أرضية المنزل . ثم إلى الخلف ، من المكان الذى جعل لضيوف الشرف ، توضع الحقائب ، والأمتعة الجلدية ، والمواد الغذائية ، وإلى الخلف منها تعلق تماثيل الآلهة[1] .

يعلق المغولى صورة مجسدة تتدلى من أعلى المكان الذى يجلس فيه صاحب الدار ، ويسمى هذا التمثال « أخو صاحب المنزل » ، كما يعلق فوق المكان الذى تجلس فيه صاحبة المنزل تمثالاً آخر على نفس النمط ، ويسمى « أخو صاحبة المنزل » . ويعلق فى الوسط بين هذين التمثالين — وإلى الأعلى منهما ، تمثالاً ثالثاً أقل سماكة وحجماً من التمثالين الآخرين . ويعتبر المغول الوثنيون أن هذا التمثال الصغير هو الحارس لجميع البيت ومحتوياته[2] .

وعلى العموم ، فانه يمكن أن نعتبر النصف الأيسر من البيت (أى عندما يكون الاتجاه إلى ناحية الجنوب) مكاناً مخصصاً لجلوس النساء ، سواء أكن من نساء ومحارم صاحب الدار ، أو من النساء الزائرات ، فى حين نجد أن النصف الأيمن ، من ذلك المنزل قد جعل مكاناً خاصاً للرجال ، سواء من أهل

(١) Rubruck, "The Journey. .", P : 95.

(٢) Ibid. P : 95.

الدار ، أم من الرجال الزائرين . أن سيدة البيت ، فى المجتمع المغولى ، يكون لديها مسند ، أو مخدة ، مصنوعة من جلد الماعز ، ومحشوة من الداخل ، أما بالقش الناعم ، وأما بصوف الأغنام أو بشعر الماعز الناعمين ، حيث تجعله فى مكان مرتفع قليلاً ، وعليه تمثال صغير متجهاً ناحية النساء[1] .

يوضع عند المدخل إلى قسم النساء تمثال ومعه مجسدة لضرع بقرة ، وهذا التمثال خاص بالنساء اللواتى يقمن بحلب وضرب الأبقار ، لأن هذه المهمة تعتبر من وظائف النساء . كما يوضع عند المدخل إلى قسم الرجال تمثال آخر ، ومعه تمثال لضرب فرس ، وهذا التمثال مخصص للرجال الذين يقومون بحلب وضرب الأفراس ، حيث أن هذه العملية غالبا ما يقوم بها الرجال[2] .

عندما يجتمع المغول على شراب ، فانهم يذرون النضحات الأولى من شرابهم لتلك التماثيل ، فيبدأون أولاً بالنضح على ذلك التمثال المتدلى من على رأس سيد الدار على اعتبار أنه كبير التماثيل ، لوضعه متدلياً فوق مجلس رب المنزل ، ثم التماثيل الأخرى بالدور ، وعلى التوالى واحدا بعد واحدة حسب مكانة هذا التمثال ووضعه بين التماثيل المغولية الأخرى . بعد هذا يخرج الخادم إلى خارج المنزل يحمل كأساً وبه شراب ، فينضح بشىء منه ثلاث مرات إلى ناحية الجنوب ، مع ثنى ركبته فى كل مرة عندما ينضح ، ويعتبر ذلك النضح بالشراب إلى جهة الجنوب تشريفا للنار . ثم يكرر الخادم نفس الحركة تلك باتجاه الشرق ، تشريفاً للهواء ، ثم إلى الغرب ، تشريفاً للماء ، ثم إلى الشمال تشريفاً لمغولى . ثم بعد الانتهاء من هذا النوع من الطقوس يعتبرون أن الالهة قد أخذت نصيبها من ذلك الشراب ، وقد شرفوا الهواء والماء واسلافهم من المغول ، وهنا يشرعون فى احتساء الشراب ذاك[3] .

---

(١) Ibid. P . 95 - 6.

(٢) Ibid. P 95 - 6.

(٣) Ibid. P : 95 - 6.

قائمة مصادر البحث ومراجعه

أولا : المصادر :

١ ــ المصادر الاسلامية ، العربية والفارسية :

١ ــ ابن الاثير ، عز الدين على بن أبى الكرم ، « الكامل فى التاريخ » ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م (عربى اللغة) .

٢ ــ ابن بطوطه ، أبو عبد الله محمد « رحلة ابن بطوطه » ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م ، (العربية ، ولها ترجمات إلى لغات شتى منها الانجليزية) .

٣ ــ الجوينى ، علاء الدين عطا ملك ، « تاريخ جهانكشاى » أو « تاريخ فاتح العالم » تحقيق الأستاذ المرحوم ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، طبعة ليدن ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ هـ/١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧ م (فارسى اللغة) .

٤ ــ رشيد الدين ، فضل الله بن عماد الدولة ، « جامع التواريخ » ، جزءان ، تحقيق د . بهمن كريمى ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش . (فارسى اللغة) ، وله ترجمات إلى بعض اللغات منها الروسية والانجليزية والعربية وغيرها .

٥ ــ ابن العبرى ، كريكورى أبو الفرج الملطى « تاريخ مختصر الدول » أو « مختصر تاريخ الدول » تحقيق صاليحانى ، بيروت ، ١٩٥٨ م ، ترجمة المؤلف ابن العبرى من لغته الأصلية السريانية إلى اللغة العربية .

٦ ــ القزوينى ، حمد الله المستوفى ، « القسم الجغرافى من كتاب (نزهة القلوب) ترجمه إلى الانجليزية المستشرف ج . لوسترنج ، ليدن ١٩١٣ م . (الفارسية مترجم إلى اللغة الانجليزية) .

٧ ــ مجهول المؤلف ، « التاريخ السرى للمغول » ، أو « تاريخ سرى

مغولان » ، ترجمته عن الفرنسية الدكتورة شهريني بياني ، طهران ، ١٣٥٠ هـ . ش . (الصينية مترجم إلى الفرنسية ومنها إلى الفارسية) .

ب ــ مصادر بلغات غير اسلامية (الانجليزية والمترجمة إليها) :

٨ ــ Benedict, Brother, "The Narrative" Ed., by : Ch. Dawson, Under the title "The Mongol Mission", London and New York, 1955.

٩ ــ Carpini, John of Plano, "History of the Mongols" Ed. by : C. Dawson, Entitled : "The Mongol Mission", London and New York, 1955.

١٠ ــ Jawaini, 'Ata Malik, "The History of the World Conqueror" Translated from Persian into English by : Prof. J.A. Boyle, Manchester University Press, Manchester, 1958.

١١ ــ Polo, Marco, "The Description of the World", translated and editted by : Ch. Moule and Paul Pelliot, London, 1938. Vol. 1.

١٢ ــ Rashid al-Din, Fadl ullah, "The Successors of Genghis Khan", translated from the Persian by Prof. J.A. Boyle, New York, 1971.

١٣ ــ Rubruck, Friar William, "The Journey of William of Rubruck to the Eastern Part of the World, 1253 - 1255, with two accounts of the earlier journey of John of Pian De Carpine, W. W. Rockhill, London, 1967.

١٤ ــ Rubruck, F. W. "The Journey of William of Rubruck" with the title : The Mongol Mission, Editted by Ch. Dawson, London and New York, 1955.

١٥ــ Unknown, "The Secret History of the Mongols" translated from the Chinese by Aurther Wally, London, 1963.

ثانيا : المراجع الحديثة :

ا ــ مراجع باللغة العربية :

١٦ــ الغامدى ، سعد محمد حذيفه « سقوط الدولة العباسية » بيروت ١٤٠١ هـ .

١٧ــ « معركة قطوان ، أسبابها ونتائجها » مجلة العصور ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، جمادى الأولى ، ١٤٠٧ هـ ، ص . ص : ٧٥ ــ ٩٤ .

ب ــ المراجع باللغة الانجليزية :

١٨ــ Barthold, W. W. "Four Studies on the History of Central Asia" Leyden, 1962.

١٩ــ De Rachewilts, Igor, "Papal Envoys to the Great Khans", London, 1971.

٢٠ــ Micheli, Silvio, "Mongolia in Search of Marco Polo and other Adventures", translated from the Italian by : Druce Penman, London, 1967.

٢١ــ Newton, A.P. "Travel and Travellers of the Middle Ages", London, 1930.

٢٢ــ Petrov, V.P. "Mongolia, A Profile", London, 1970.

٢٣ــ Ross, Sir E.D. "Presier John and the Empire of Ethiopia", Travel and Travellers in the Middle Ages, Ed., by Newton, London, 1930, PP : 174 - 194.

ثالثا : الدوريات والمجلات :

٢٤ــ مجلة قافلة الزيت ، المجلد الحادى والثلاثون ، ١٤٠٣ هـ .